

الحكم في القرآن الكريم

مفهومه ودليله ونزومه

بروفيسور / محمد عثمان صالح
الامين العام للهيئة

مقدمة :

الحمد لله العلي الكبير، الحكم العدل اللطيف الخبير، القائل في محكم تنزيله لرسوله (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَافِثِينَ خَصِيماً) (النساء: ١٠٥).

والصلاة والسلام الأكملان الأتمان على عبده ورسوله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداة إلى يوم الدين، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .. أما بعد ..

فقد دعت الحاجة إلى الكتابة في هذا الموضوع المهم لما له من جوانب عقدية فكرية وفقهية وسياسية واجتماعية مختلفة، فموضوع الحكم في القرآن الكريم الذي هو الركن الركين في مصادر العقيدة والشريعة الإسلامية لم يكن عليه اختلاف بين المسلمين في العصور السابقة منذ عهد الخلافة الراشدة إلى العصر الأموي والعصر العباسي والعصور التالية إلى نهاية الخلافة العثمانية أوائل القرن

العشرين المنصرم، لم يشذ في ذلك شاذ أو يخالف مخالف، وإن كان هناك شيء من الاختلاف فهو حول تمكين حكم القرآن وتنزيله في واقع الحياة وعندئذ تسمع الشعار الجهير "لا حكم إلا لله" ثم نبئت نابتة من أهل الهوى والتأثر بالأجنبي من أدعياء العلم أو المنتسبين لمؤسساته فتفوا أن يكون في الإسلام حكماً وخلافة، مثل : علي عبدالرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذي أثار ضجة علمية وعاد عليه بالنقد اللاذع والحكم الرادع، ورد عليه أكثر من عالم جهيز من علماء الأزهر، وبقدر تسلسل الفكر العلماني الداعي إلى ديمقراطية قيصرية، المبادر إلى فكرة فصل الدين عن الدولة تعددت الكتابات والأبحاث والمقالات من علماء أفذاذ .

والأسئلة المتبادرة إلى الأذهان حول هذا الموضوع : ما مفهوم الحكم في اللغة العربية وما مترادفاته في هذا الإطار ؟

وما مفهوم الحكم في القرآن الكريم ؟ وما أنواعه من حيث الحكم في القضايا الاعتقادية وقضايا الأحكام الشرعية

الخمسـة ؟

المبحث الأول :

مفهوم الحكم في القرآن الكريم ولغة العرب :

المطلب الأول : مفهوم الحكم في اللغة ومترادفاته :

جاء في المصباح المنير مادة حكم الحكم : القضاء، وأصله المنع يقال : حكمت عليه بكذا إذا منعت من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك، وحكمت بين القوم فصلت بينهم، ومن المادة الحكمة التي تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل، وأحكمت الشيء أتقنته .

ومن المترادفات أو بالأصح المعاني الأقرب إلى الحكم القسْط وهو بمعنى عدل وجار، فهو من الأضداد، لكن أقسط (بالألف) عدل، وقسط بدونها جار، والقسطاس الميزان قيل عربي مأخوذ من القسط وهو العدل .

وأما العدل فهو القصد في الأمور وهو خلاف الجور، والعدالة صفة توجب مراعاتها الاحتراز عما يخل بالمروءة (المصباح المنير : مادة عدل) وأما الملك (بالضم) فهو تولى الحكم وملك الملك على الناس تولى أمرهم والسلطنة عليهم والمادة موجودة في القرآن الكريم .

الحكم في القرآن الكريم هوردد الأمر كله لله رب العالمين ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في حياته وإلى سنته بعد وفاته وعدم المشاققة في ذلك، والاستسلام لأمر

ثم بعد ذلك ما الأدلة على وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى من خلال نصوص القرآن الكريم، ثم من خلال السنة المطهرة وتطبيق الواقع التاريخي ؟ أيضاً تتوجب الإجابة على السؤال المهم ما لزوم الحكم بالقرآن الكريم من الجوانب العقلية والتجارب التاريخية والحاجات الواقعية في العصر الراهن ؟

في منهج البحث سأعتمد على إيراد النصوص القرآنية مخرجة في الأصل، وكذلك نصوص الحديث النبوي، كما أعتمد على الوصف والتحليل والمقاربة بين الماضي والحاضر، وقد نظمت هذا البحث على ثلاثة مباحث وفي كل واحد مطالب .

المبحث الأول : حول مفهوم الحكم في القرآن الكريم لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : حول أدلة الحكم بالقرآن الكريم المؤيدة للمفهوم المراد للمؤمنين .

المبحث الثالث : حول الحكم بالقرآن من نصوص القرآن للمعارضين .

المبحث الرابع : لزوم الحكم بالقرآن الكريم من الجوانب العقلية والتجارب التاريخية والحاجات الواقعية .

والله اسأل التوفيق والهداية وأن يبعد عن الأمة انتحال الضالين وتأويل المبطلين وهو نعم المولى ونعم النصير .

المبحث الثاني :

حول أدلة الحكم بالقرآن من القرآن نفسه :

المطلب الأول : خطاب المؤمنين في الاعتقاد :

القضية الأساسية في القرآن الكريم هي قضية العقيدة، الأساس الأول لها الإيمان بالله تعالى، ثم الانقياد لحكمه والتصديق بعدلته، بل إن اسم الإسلام نفسه مأخوذ من الاستسلام لأمر الله تعالى وحكمه، (نَ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (آل عمران ١٩) (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (آل عمران ٨٥) وجاء قبلها لشرح هذا المعنى قوله تعالى (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (آل عمران ٨٣) وإسلام من في السموات والأرض طوعاً هم المؤمنون وكرهاً الآخرون وفق القوانين الكونية للأشياء والأحياء .

وإذا كان الأمر كذلك - كما هو مشاهد - فإن خطاب الله تعالى للمؤمنين ليؤثقوا دعائم حكم الله في الحياة الإنسانية في مختلف جوانبها أمر واضح الدلالة من الآيات البيّنات، وانعدام هذا الحكم انعدام لأصل الإيمان قال تعالى (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (النساء ٦٥)

الله تعالى في المسائل القدريّة - التي تقع على الإنسان - وفي المسائل التكليفية التي يخاطب بها الناس أمراً أو نهياً أو إباحة، فمدار الحكم في الشريعة الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم تقوم على الأحكام الخمسة : الوجوب، والندب، والإباحة، والكراهة، أو الحرمة، ولا بد لإثباتها والفصل فيها من حكم يحكم بين الناس .

وأوضح آيات القرآن الكريم في ترسيخ هذا المفهوم آية سورة النساء (١٠٥) التي استشهدنا بها في مطلع المقدمة، وكذلك قوله تعالى : (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا) (النساء : ٨٣).

فهذا معنى واضح شرحه المفسرون - على وضوحه - وأجادوا في ذلك وأفادوا من الأقدمين (ابن جرير الطبري - ابن كثير) ومن المعاصرين (السعدي - سيد قطب) رجم الله الجميع رحمة واسعة .

أقول : والإشارة في آخر الآية توضح أن الإنحراف عن منهج الله تعالى وعدم اتباع ما حكم به هو اتباع لسبيل الشيطان حسب النص (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً) .

العام الذي هو انتهاك الحقوق الأخرى دون ما شرع فيها من الحدود .

المثال للمفهوم العام الآيات الواردة في سورة المجادلة وسورة الطلاق عن حق الزوجة (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) (الطلاق: ١) وفي سورة النساء أيضاً (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (النساء: ١٢) .

أما الأمثلة من المفهوم الثاني فقد جاء للردع والزجر بقدر الإثم العظيم لمن يعطل حدود الله، وفي سورة النور فصلت بعض هذه الحدود الزواجر لمنع انتهاك الحرمات سواء كان ذلك بالقذف أو السب والشتيم أو بالزنا قال سبحانه وتعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُحْيُونَ أَنْ تَشْبَعُ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النور: ١٩) (وفي تفسير الجلالين) لهم عذاب أليم في الدنيا بعد القذف وفي الآخرة بالنار لحق الله تعالى ، وقد أحصى م. عبد المنعم مصطفى (الإسلام والدولة مقارنة منهجية ص ٥٩-٦٢) ما ورد في سورة المائدة من تفصيل للقانون الدستوري والجنائي على نحو دقيق، في القتل (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ

وهذه الآية نزلت في صحابين تحاكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرض أحدهما القضاء فكان هذا الوعيد الشديد بسلب الإيمان ممن لم يرض بحكم رسول الله الموقع عن الله تعالى والحديث رواه الأئمة الستة عن عبد الله بن الزبير (أنظر السيوطي - لباب النقول في أسباب النزول) .

ومن هنا جاءت قضية الإمتثال لحكم الله أظهر ما يكون في الكتاب الكريم في قوله تعالى : (أَمَّا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (النور: ٥١) .

المطلب الثاني : خطاب المؤمنين في الحدود والحقوق :

المقصود بالحد الفصل والمنع، والجمع الحدود في حدود الأرض وفي حدود الشرع، لأنها تمنع من الإقدام على انتهاك الحقوق والحرمات ويجدر بالذكر أن كل الحدود في الشريعة الإسلامية الواردة في القرآن والسنة إنما شرعت لحماية هذه الحقوق والحرمات وهي مضمنة في أبحاث مقاصد الشريعة الإسلامية التي يسميها بعض العلماء الكليات الخمس .

لقد جاء النذير الشديد والتحذير والوعيد على من ينتهك الحرمات أو يلعب في الحدود، سواء كان بالمفهوم الإصطلاحي المشار إليه آنفاً أو بالمفهوم

إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (المائدة ٩٠-٩١) وفي العِدَالَةِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى الْأَتْعَدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة ٨) (وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ) (المائدة ٤٢) .

المبحث الثالث

حول الحكم بالقرآن من نصوص القرآن للمعارضين .

المطلب الأول : أدلة الحكم بالقرآن من نصوص القرآن الكريم للمعارضين :

هذا خطاب المؤمنين المتأولين يخاطب به المؤمنون بالله تعالى ورسوله الكريم إيماناً لا نفاق فيه ولا رياء ولكن في إيمانهم علل، وفي فهمهم ذلل، ونقصد بهؤلاء المؤمنين الذين اختلط عليهم الأمر ولبسوا الحق بالباطل جهلاً أو تأويلاً بعيداً مع أنهم يزعمون الإيمان بالله ويسنة رسوله لكن تجافى بهم الدليل وتفرقت عليهم السبل قال تعالى في أمثالهم من أهل الكتاب : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (الأنعام: ١٥٩) .

مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَنْ نَسْطِلَ إِلَيْكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيَّ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعْتُ لَهُ نَفْسَهُ فَأَقْبَحَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (المائدة ٢٧-٣٢) وفي السرقة (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (المائدة ٣٨-٣٩) وفي القصاص (وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (المائدة ٤٥) وفي الخمر (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ *

صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال الرسول : يا حاطب ما هذا ؟ فقال لا تعجل علي يا رسول الله ! إني كنت امرأاً ملصقاً في قريش .. فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ولم أفعله كضراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق ، فقال عمر رضي الله عنه : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه شهد بداراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (الحافظ المنذري (مختصر صحيح مسلم ص ٨١٠-٨١١ ، وأخرجه البخاري ٢٠٠٧).

وإذا كان العفو هذا خاص بهذه الحادثة فإن الوعيد الشديد قد جاء في الكتاب الكريم لمن يسلك هذا السبيل بالتخاير مع العدو أو موالاته قال سبحانه وتعالى في هذا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) (المتحنة ١) .

المطلب الثاني : خطاب المنافقين :

نعم قد يختلط الأمر ، ويلتبس النفاق بالإيمان وهذا هو الخطر الماحق على الإسلام والمسلمين ، ومن ثم كان المنافقون

وفي تفسير الجلالين فرقوا دينهم باختلافهم فيه فأخذوا بعضه وتركوا بعضه وكانوا شيئاً فرقاً ، وهذا هو حال المشار إليهم في أول هذا المطلب ، الذين يضعفون أمام مصالح الدنيا ويقولون في مواجهة ضغوط الكفار (نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) (المائدة: ٥٢)

وما أشبه الليلة بالبارحة من نماذج قد ألهاها الهوى والمصالح الزائلة عن الصمود في طريق الحق إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ومن ذلك نموذج الصحابي أبي لبابة مروان بن عبد المنذر الذي نزل فيه وفي مجاملته لليهود قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (الأنفال: ٢٧) .

ونموذج آخر هو نموذج الصحابي حاطب بن أبي بلتعة الذي ضعف تجاه مصالحه مع مشركي مكة فكاتبهم فكشف الله السر لرسوله صلى الله عليه وسلم وقد روى الإمام علي رضي الله عنه القصة فقال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال : إئتوا روضة خاخ (هكذا بخائين) فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها ، فانطلقنا تعادي بنا خيلنا ، فإذا نحن بالمرأة فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، فأخرجته من عقاصها ! فاتينا به النبي

اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (آل عمران: ٧) . ثم إن المنافقين (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ × وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ × إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ × أَلِيهِ قُلُوبُهُمْ مُّزْطَرٌّ أَمْ أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (النور: ٤٧-٥٠) .

أجل ظالمون !! ظالمون لأنفسهم وظالمون لقومهم وأمتهم حيث لم يهتدوا بالحق وصدوا غيرهم عن الحق فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين (البقرة: ١٦) .
المطلب الثالث : خطاب الكافرين :

الحق عز وجل خاطب الناس جميعاً، مخاطب المؤمنين، والعاصيين، ومخاطب المنافقين، ومخاطب الكفار من أهل الكتاب والمشركين .. الرب الرؤوف الرحيم لم يترك أحداً إلا مخاطبه في محكم التنزيل كما جاء في قوله عز وجل (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ × إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ) (النحل: ٣٦-٣٧) والمقصود في هذه الرسالة بعد

في الدرك الأسفل من النار (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) (النساء: ١٤٥) وإذا أن حكم الله واضح وظاهر يحاول أهل النفاق أن يسوقوا الناس إلى غيره من الحكم يعتمدون في ذلك على التأويل البعيد، واللحاجة الفاضحة، والإصرار العنيد (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) (المنافقون: ٥) .

الأخطر من هؤلاء - الذين فضحهم القرآن زمن التنزيل - الذين جاءوا من بعدهم وينطبق عليهم ما كان من أشباههم (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أَخْرَجْتُمُنَا نَخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (الحشر: ١١) .

إن التحالف مع الكفار من هؤلاء المنافقين لا يمكن أن يكون إلا بتأويل بعيد حفاظاً لهم على ظاهر الإيمان الذي ادعوه، وقد يجدون لهم مندوحة في هذا التأويل لما في التنزيل من التشابهات، ولما في التاريخ من ملاسبات قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا

سبيلهم والركون لوعودهم وخذاعهم
(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا
سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ
مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)
(المنكوت: ١٢)

وإذا كان هذا حال الكفار يوم ذاك فهل
اختلف حالهم يومئذ ؟
وهل سبيل الكفار في دنياهم المعاصرة
أكثر سعادة وطمأنينة من يؤس السنين
على تعاقب القرون وكأنهم يقولون الآن
قبل يوم البعث (فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ
(غافر: ١١)

المبحث الرابع

لزوم الحكم بالقرآن من الجوانب
العقلية والتجارب والحاجات
الواقعية :

المطلب الأول : لزوم الحكم بالقرآن
من الجوانب العقلية :

خاطب القرآن الكريم عقول الناس
وطلب منهم التدبر فيه والتفكر في آياته،
وتحدى من لا يستعمل عقله ولبه أن
الزمان كفيلا بإظهار حقيقة ما فيه من
العلم والحق قال تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتَنَا
فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ
الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ × أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا
إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ) (فصلت ٥٢-٥٤) وقد
بان الآن أن الحيدة عن منهج القرآن فيها

قضية الإيمان بالله تعالى الإيمان بحكمه
وسلطانه وأن الدين كل لا يتجزأ أبداً ..
والمغنم فيه بالمغرم فمن صبر على جهاد
النفس وجهاد العدو طاب له التمتع
بالسكينة والطمأنينة ذلك في الدنيا وفي
الآخرة بعد مقاساة الشدة والأواء، هنا
قال سبحانه: (إِيمٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) (آل عمران ١٤٢) .

إن الكافرين إذ يخاطبهم القرآن
الكريم في قضية الخضوع لحكم الله
تعالى والإنصياع لأمر لا تشرح صدورهم
إلا إذا كان في إيمانهم دُخَنٌ يلبي رغبات
النفوس المائلة ويفضح التنزيل الحكيم
دخائلهم إذ يدعون إلى الإيمان فيكفرون
(ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ
وَأِنْ يَشْرِكْ بِهِ تَأْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ
الْكَبِيرِ) (غافر: ١٢) .

هكذا كان حال المشركين وحال أهل
الكتاب من يهود ونصارى ولا يزال الحال
هو الحال، ليس هذا فحسب بل يريدون
الصد عن سبيل الله كما جاء في أول سورة
محمد (صلى الله عليه وسلم) وكما جاء
في صيغة الاستفهام الاستنكاري التالية :
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ
يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ) (آل
عمران ٢٣) .

ثم حذر الله تعالى المؤمنين من اتباع

ينبغي الرجوع لفقه المقاصد الشرعية التي تدور على جلب المصالح ودرء المفسد على أن تستصحب القواعد الشرعية التي استنبطت من المقاصد الكلية في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

(ولا نعلم من المسلمين في القديم من ذهب إلى القول بأن العقل يستقل بالإيجاب في الإفعال دون الشرع حال وروده إن هذا قول يخرج من ربة الإسلام) (عبد المجيد النجار - مراجعات في الفكر الإسلامي (١١٢) .

والقضية في سن القوانين أو تأسيس الدساتير تقوم على تقديم النص ومؤامة العقل له فليس للعقل تحسين ما قبحه الشرع كما ليس له تقبيح ما حسنه الشرع وقد فصل هذه القضية الإمام ابن تيمية في كتابه (درء تعارض العقل والنقل) .

والنصوص الشرعية نفسها تدل على أن المشرع - عز وجل - ترك مساحة لاجتهاد العقل في النوازل التي لم ترد فيها نصوص، وأوضح دليل على ذلك حديث معاذ رضي الله عنه إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فسأله (بِمَ تقضي قال بكتاب قال فإن لم تجد قال بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيي لا آلو) والحديث مشهور في الصحاح .

الضلال المبين بل إن القرآن تحدى عقول المنظرين والفلاسفة والمنكرين أن يجدوا لهم طريقاً أو مذهباً يحل مشكلاتهم الفردية والاجتماعية فما حاروا جواباً وكان التحدي الصريح في قوله سبحانه: (فَأَيُّ تَذَهَّبُونَ × إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ × لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) (التكوير - ٢٦ - ٢٨) .

وأصرح ما يكون في مخاطبة العقول قوله عز وجل (كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (البقرة ٢٤٢) وقوله للمؤمنين محذراً من الإنخداع والإنجرار وراء الأعداء (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُوْنَكُمْ خَبَالًا وَدُّوْا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) (آل عمران ١١٨) .

المطلب الثاني : الحكم بالقرآن واتساق العقل والنقل :

ولئن كان النص القرآني الصريح المحكم يوجب على المؤمن الإلتزام به وعلى الحاكم تنفيذه ففنه لا حاجة لتدخل العقل البشري في التشريع اللهم إلا من جانب ترتيب الأبواب والفصول أو الأبواب والمواد في أي نظام قانوني جنائياً كان أو مدنياً أو أحوالاً شخصية .

ولكن تظهر بعض المشكلات عند عدم صراحة النص أو احتماله لأكثر من وجه أو في حالة عدم وجود نص أصلاً، هنا

الموقف من فقه المقاصد ودور المدرسة الوسطية التي يقودها في العصر الحديث الدكتور يوسف القرضاوي (بين المقاصد الكلية والنصوص الجزئية) كما بحث الدكتور العوا المقاصد الضرورية في الاجتهاد المعاصر وضرورة استمرار الاجتهاد في مجال كشف المقاصد .

الخلاصة :

لكن ما أنبه له في ختام هذا البحث هو ألا تتخذ المقاصد شماعاً أو تكأة لصرف النصوص عن ظاهرها أو التسطح فيها حتى توائم رغبات علمانية مستجدة تشربتها الصفوة المثقفة ثقافة غربية وهذا هو الخط الفاصل بيننا وبين العلمانيين .

والله ولي التوفيق

المطلب الثالث : التجارب والحاجات الواقعية

إن تجارب تدوين الأحكام الشرعية سواء كان ذلك في مجال فقه الفروع أو فقه الأصول أو ما سمي بأصول الفقه فقد لبي الحاجات الواقعية تقديراً لظروف الزمان وظروف المكان من غير شروء أو جنوح عن الأصل القرآني أو الحديثي .

وقد كانوا يقولون كل ما خالف نصاً صريحاً أو عارض تقييماً أو تحسيناً شرعياً فهو ساقط ويقولون "إذا صَحَّ الحديث فهو المذهب" أو يقولون "إذا عارض ما أقول به النص فاضربوا به عرض الحائط" وبين التمسك بالنص والفسح في الاجتهاد ميدان فسيح للاجتهاد لوضع القواعد التي ترعى المصالح في الدساتير كالعادلة والحرية والشورى والنزاهة .

لقد ضبط علم المقاصد الشرعية الذي اهتم به العلماء المعاصرون كثيراً من الجنوح في محاولة صرف النصوص عن واقع الأحكام وهذا ما نبه عليه كل من الإمام الطاهر بن عاشور في كتابه (مقاصد الشريعة) والدكتور عبدالمجيد النجار (مصدر سابق) وكذلك الشيخ الحبيب بن خوجة وأخيراً الدكتور محمد سليم العوا في رسالته (دور المقاصد في التشريعات المعاصرة - مركز دراسات مقاصد الشريعة ٢٠٠٦) .

وقد بحث الدكتور محمد سليم العوا